ابن هانئ في حاضرة الزاب الجزائري

حمدونيات ابن هانئ الأندلسي

أ. فاتح حمبلي
قسم اللغات والأدب
المركز الجامعي أم البواقي

ملخص

تتناول هذه الورقة حمدونيان ابن هاني الأندلسي وعلاقته بولاة الزاب بالجزائر، هذه الحمدونيات التي دارت حول المعاني التقليدية التي شاعت عند شعراء المديح القدامى، إذ اتسمت بالمبالغة لتطق الشاعر بشخصية الممدوح.

أما المعاني الباطنية (الشيعية) فقد كانت خافتة ولم تظهر إلا في المراحل اللاحقة .

وقد التزم الشاعر في هذه الحمدونيات بناء القصيدة العربية العمودية الخليلية في جميع مظاهرها، بلغة قوية مجلجلة وتصور يوحي بعمق فعالية المديح عند الشاعر.

Abstract :

The maghrebian period when the poet Ibn Hani had lived among (BENI HAMDOUN) princes – was a period which was not well studied in ancient and modern times.

The aims of this study are : to analyse the praise's poems of (IBN HANI) for the princes of the (ZAB URBAN in Algeria) and to show their contents and characterists, and in other side giving a view of this place's society in all fields and emphasizing in maghrebian's origin of this poet with most of the searchers didn't talk about.

نشأة ابن هانئ ومولده:

ابن هانىء شاعر الأندلس ولادة، القيرواني وفادة وإفادة[1] نشأ بإحدى القرى الأندلسية على خلاف بين الرواة في سنة ومكان ولادته، ولذلك يحيط بحياة ابن هانىء الغموض الكثيف حيث بدت حياته لغزا لقلة المعلومات عنها في المصادر الشيعية والسنية على حد سواء.

يرى ابن خلكان أن الشاعر ابن هانىء هو " أبو القاسم، محمد بن هانىء الأزدي الأندلسي الشاعر المشهور، قيل أنه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، وقيل، بل هو ولد أخيه روح بن حاتم، وكان أبوه من قرية من قرى المهدية بإفريقيا، وكان شاعرا أديبا، فانتقل إلى الأندلس فولد محمد الذكور بمدينة إشبيلية، ونشأ بها، واشتغل وحصل له حظ وافر من الأدب "[2]

أما ابن الأبار فيرى أن ابن هانىء ولد بقرطبة وهو:" محمد بن هانىء بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي غلب ذلك عليه من أهل البيرة، ونشأ بقرطبة يكنى أبا القاسم من ولد المهلب بن أبي صفرة... وأبوه من قرية المهدية دخل الأندلس وولد له ابنه أبو القاسم وكان أكثر تأدبه بقرطبة"[3]

ويرى بن سعيد أنه ولد بالبيرة، فابن هانىء من "بني المهلب الذين ملكوا إفريقيا وانتقل أبوه منها إلى جزيرة الأندلس وسكن البيرة فولد له بها محمد بن هانىء" ويسميه بن سعيد أيضا بالشاعر الإلبيري، ويردفها هذه النسبة بـــ" الغرناطي "[4]. وأورده ياقوت الحموي على أنه "أبو القاسم الأزدي الأندلسي من ولد روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب شاعر مفلق، وأشعر المتقدمين، والمتأخرين من المغاربة وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق، ولد بإشبيلية، ونشأ بها، ونال حظا واسعا من علوم الأدب وفنونه"[5]. ويرى ابن الخطيب أن ابن هانىء ولد بقرية "سكون" وهي قرية من أحواز إشبيلية غير أنه يدعوه الإلبيري لا الإشبيلي[6].

أما الفتح بن خاقان فيكتفي بالثناء على شعر ابن هانىء دون الإشارة إلى مولده ونشأته فهو يراه "الأديب أبو القاسم محمد بن هانىء ذخر خطير، وروض أدب مطير غاض في طلب الغريب حتى أخرج دره المكنون"[7].

وكما اختلف الرواة في مكان ميلاده اختلفوا أيضا في سنة الميلاد فرأي يقول بولادته في سنة320 هـ ورأي يذهب إلى أنه ولد سنة 326 هـ، والمرجع عند محمد اليعلاوي وأبو القاسم محمد كرو[8] أن ابن هانيء ولد سنة 320 هـ 932 م استنادا إلى عدة مبررات منها، أن الشاعر ترك بلاده وعمره آنذاك سبعة وعشرون عاما، وأول من لقي بالمغرب جوهر الصقلي وذلك سنة 347 هـ ، ولما كان عمره عند مغادرته سبعة وعشرون عاما وكانت سنة وفاته في عام 362 هـ فبواسطة عملية الطرح يتأكد أن الشاعر ولد سنة 320 هـ ولا يستبعد بعد ذلك أن يكون انتماؤه على فرقة الإسماعيلية المغالية في التشيع سبب إحاطة شخصيته –على شهرتها بحجاب من الغموض[9]".

أسرة الشاعر وأهله:

لا نكاد نعثر على أسرة الشاعر إلا على صورة شاحبة من خلال أشعاره إذ لم يتعرض ابن هانيء لذكر أبيه، ولا لذكر أمه، ولا حتى زوجته وأولاده فكل ما في الأمر أنه أشار إلى موضع إقامة أهله غداة مغادرة المعز لدين الله لإفريقيا، وإقدامه على الرحيل إلى مصر، ويبدو من خلال إشارته الشعرية أن أهله كانوا مقيمين ببلاد " الزاب بالجزائر" يقول في ذلك: [10]

وإنـي وإن شـط المزار لراجع إلـى ود قلب في ذراك مغيـب

ولولا قطين في قسي من النوى لما كان لي في "الزاب"متلـوم

إذا عدنا إلى هانيء والد الشاعر، فإننا نجد كتب التاريخ تتفق في مكان ولادته "بالمهدية" " بتونس " وتختلف في أسباب هجرته إلى الأندلس، فبعضها يرى أن هجرة الوالد كانت من أجل السعي إلى الرزق، وبعضها الآخر يرى أنها هجرة للعمل على كسب الأنصار للأمة الفاطميين، وهذا الرأي اعتد به الدارسون المعاصرون وأخذوا به، إذ يفترض منير ناجي أن يكون هانيء قد أختير للتبشير بمبادىء الإسماعيلية في أرض الأندلس،[11] وأكد نفس الرأي أحمد خالد الذي يعلل هجرة الوالد في قوله " ويبدو أن هانيء والد الشاعر. وهو أديب مثله تجلت مواهبه في الشعر والفلسفة– من الدعاة الذين كلفوا بنشر الدعوة الإسماعيلية في الأندلس منذ تأسيس الدولة الفاطمية سنة 297 هـ..."[12] ولا يمانع محمد اليعلاوي من

اعتبار هانىء من الدعاة الكثيرين الذين تكونوا بدار الدعوة بالقيروان، ثم عبروا البحر إلى أرض الأمويين لينشروا المذهب الإسماعيلي بها، ويمهدوا مذهبيا للحملة العسكرية التي ينقطع الأئمة الفاطميون من التفكير فيها. [13]

بما أن هانىء والد الشاعر قد كلف بنشر الدعوة الإسماعيلية فلا شك أنه على حظ وافر من الثقافة الدينية والعربية، والتي يكون قد لقنها لابنه الشاعر فساهمت في تكوين ملامح شخصيته على النحو الذي سوف نبنيه بعد قليل.

علاقة ابن هانىء بولادة الزاب الجزائري:

حسب ما أورته مصادر التاريخ وتراجم الأدباء فإن حياة ابن هانىء عرفت ثلاث مراحل أساسية هي المرحلة الأندلسية، المرحلة المغربية (الحمدونية) والمرحلة الإفريقية وحديثنا سيقتصر على المرحلة المغربية بالدرجة الأولى لخصوصية العلاقة لبتي تربط الشاعر بولادة الزاب الجزائري.

المرحلة الأندلسية:

إن كتب التاريخ، والتراجم لم تحدثنا عن المرحلة الأندلسية من حياة ابن هانىء وبقيت في طي الكتمان مدة طويلة من الزمن قضاها الشاعر بالأندلس، لا نجد لها أي صدى في ديوانه، إذ لا نقع لأي ذكر لتلك الطبيعة الرائعة، طبيعة إشبيلة التي نشأ بين أحضانها، غير أن ما يلفت الإنتباه في هذا الصدد هو أن ما اعتبره الباحث منير ناجي[14] من كون بعض خمريات ابن هانىء الواردة في ديوانه يمكن أن تكون من بقايا إنتاجه الشعري بالأندلس، خاصة تلك القطعة التي تخلو من المدح أو الهجاء وتقتصر على رحلة ليلية لبعض الخمارات: يقول ابن هانىء في مطلعها[15]

وشـــامخ العرنين جا ثليـــق مروع بمثلنـا مطـــروق

إذا سلمنا أن هذا الشعر الخمري من إنتاج ابن هانىء بالأندلس حينما كان شابا لاهيا فإنه يمكن اعتبار الأبيات التي أوردها ابن سعيد، ولم تذكر في ديوان الشاعر، هي أيضا من الشعر اللاهي الذي نظمه ابن هانىء بالأندلس خاصة أن هذه الأبيات فيها تغزل فاضح بالمذكر[16].

فالرأي الذي أورده الباحث قبل قليل لا يثبت كثيرا، لأننا سنقع على مثل هذه المعاني الخمرية في قصائد ابن هانىء التي نظمها بالمغرب، بل أن حديثه عن مجالس الخمـــــر يتواصل حتى مع قصائده في مدح المعز لدين الله الفاطمي، التي كثيرا ما تستهل بمقدمات خمرية أو غزلية. إذن نخلص مما سبق أن أشعار ابن هانىء بالأندلس قد ضاعت كلها، ولم يبق منها شيء كدليل بين أيدينا يوضح لنا خصائص شعره في هذه المرحلة عامة، والمديح منه خاصة. فأما عن أسباب ضياع هذا الشعر، بالأندلس فقد خاض في تفسيرها القدامى والمحدثون، واختلفوا في ذلك، ولا بأس من الإشارة على هذه الأسباب بإيجاز.ربما كان إسراف ابن هانىء في اللهو والمجون سببا في إتلاف أشعاره وطرده من الأندلس يقول ابن خلكان في ذلك "... وكان كثير الإنهماك في الملاذ متهما بمذهب الفلاسفة ولما اشتهر عنه ذلك نقم عليه أهل إشبيلية وساءت المقالة في حق الملك بسببه، وأتهم بمذهبه أيضا فأشار الملك عليه بالغيبة عن البلد "[17].

ويضيف صاحب المطمح سببا آخرا بالإضافة إلى كثرة الإنهماك في الملاذ، هو ما أبداه ابن هانىء من الغلو في العقيدة وسلوكه سلوك المعري.في تجرده من الدين ..."وتعدي الحق المجلو فمجته الأنفس وأزعجته الأندلس فخرج على غير اختيار..."[18]. ويؤكد ما ذهب إليه ابن خاقان أيضا ياقوت الحموي الذي يرى أن طرد الشاعر ابن هانئ من الأندلس، إنما كان بسبب اتهامه بالفلسفة فهو" يسلك في أقواله وأشعاره مسلك المعري، وما زال يغلو في ذلك حتى تعدي الحق وخرج في غلوة إلى مالا وجه له في التأويل، فأزعجه أهل الأندلس واضطروه إلى الخروج من وطنه"[19]، فواضح أن أسباب طرد ابن هانئ من الأندلس، هي نفسها التي أدت إلى إهمال شعره، وربما إلى حرقه عمدا، فالشاعر لهج بمقولات الشيعة، وأراء الفلاسفة وأخذ ثقافته "في زمن ذيوع النظريات العقلانية التي لهج بها المعتزلة وفي مدة رواج الآراء "الماورائية" التي بثها الفيلسوف القرطبي ابن مسرة وكان بها قريبا من المعتزلة، ومن الباطنية الإسماعيلية"[20].

ولعل مصير إنتاج ابن هانئ الشعري بالأندلس قد لقي نفس مصير كتب ابن مسرة الذي أحرقت كتبه في شوارع قرطبة، خاصة إذا علمنا أن فقهاء الأندلس جلهم من المالكية الذين يخشون على العامة الإفتتان بأهل البدع من الشيعة.[21] ويفسر

الشاعر سبب خروجه من الأندلس بنقمة أهلها عليه لتشيعه للمذهب الإسماعيلي حيث يقول[22]:

وما نقموا إلا قديم تشيعي فنجى حزبرا شده المتدارك

غير أن هذا الإقرار من الشاعر لا يدل على تعقمه في التشيع، إذ لو كان ذلك صحيحا، لقصد الشاعر مباشرة بعد خروجه من الأندلس دار الخلافة الفاطمية لكنه لم يتصل بالمعز إلا بعد مدة من الزمن، وحتى اتصاله بأمراء المسيلة لم يكن بدافع مذهبي ولذلك " ليس لدينا دليل تاريخي على أن ابن هانئ قد اعتنق مبادئ المذهب الشيعي في صباه، غير أنه لا بد أن تكون نفسه قد أشربت روح العطف على هذه العقائد "[23]، فإذا كنا لا نملك الدليل التاريخي على تشيع الشاعر أثناء المرحلة الأندلسية فإننا لا نستطيع أن ننفي عنه ذلك في نفس الوقت. فكل ما في الأمر أن ابن هانئ لم يكن متشبعا بالعقائد الإسماعيلية عند نزوله بأرض المغرب، فشعره اللاحق يبين تطور فكرته الشيعية.

المرحلة المغربية(القصائد الحمدونية *):

تبدأ هذه المرحلة حينما عبر ابن هانئ البحر إلى المغرب، واتصل بآل حمدون أمراء الزاب الجزائري." وهم من أصل يمني نزح جدهم عبد الحميد من سوريا إلى إلبيرة بالأندلس، ومنذ غجر الدعوة الفاطمية ناصر بن حمدون بني عبيد، وفي سنة 315هـ/926م أسس الأمير القائم قبل توليه الخلافة بدوره مدينة بالزاب الجزائري سماها " المحمدية " باسمه ثم عرفت من بعد باسم المسيلة، وولى عليها عليا بن حمدون. فلما مات هذا الوالي سنة 334هـ/ 945 م في معركة ضد أبي أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار الثائر الخارجي على الفاطميين، خلفه ابنه جعفر بن علي بن حمدون في أمارة الزاب فساعده في الحكم أخوه يحي وقد تربى الأخوان في قصر الخليفة القائم ثم في بلاط المنصور في رعية الحاجب جوذر "[24]. وفي عهد الأخوين جعفر ويحي شهدت المسيلة حركة عمرانية واسعة وسلطانا قويا.فبنيت القصور والمنتزهات،" واستفحل بها ملكهم وقصدهم بها العلماء والشعراء وكان فيمن قصدهم ابن هانئ شاعر الأندلس وأمداحه فيهم معروفة مذكورة "[25] وقد أكرم الأميران وفادة الشاعر وأجز لا له العطاء، ولقي في كنفهما كل أسباب الراحة والأمن.

ونظم ابن هانئ خلا ل فترة مكوثه بالمغرب الأوسط عند آل حمدون أكثر من عشرين قصيدة ومدح أمرائهم، فله في مدح أمرائهم، فله في مدح جعفر بن علي والي الزاب خمس عشرة قصيدة ومقطوعتان، وفي مدح أخيه يحيى بن علي خمس قصائد، وأربع مقطوعات وفيهما معا قصيدة واحدة، وفي مدح إبراهيم بن جعفر أربع قصائد.[26]

إن المتصفح لهذا الكم من الأشعار التي نظمها ابن هانئ في مدح آل حمدون، يدرك للوهلة الأولى غلبة المعاني التقليدية على قصائده، والمقصود بالمعاني التقليدية تلك الصفات أو القيم العربية التي تغنى بها الشعراء الأوائل، وظلوا ينشدونها في شخص ممدوحهم، فلا تخلوا قصيدة مدح من الإشادة بهذه الصفات، التي تحولت من صفات معينة ترتبط بممدوح محدد إلى صفات مطلقة، ترسم النموذج الأعلى للشخصية العربية، وتتمثل هذه الصفات في الكرم والسخاء، وفي الحلم ورجاحة العقل، وفي البأس والقوة، والشجاعة والبطولة وكل ما له علاقة بالفروسية وكل ما تفرع عن هذه الصفات جميعا من صفات جزئية. وإذا كانت الغلبة للمعاني التقليدية في مديح الشاعر للحمدونيين وغيرهم، فإننا سنجد أن القصائد التي نظمت في هذه المرحلة تشوبها أحيانا مسحة من المعاني الشيعية. ولئن كان ابن هانئ قد طرق المعاني التقليدية في قصائده الحمدونية، فليس الغاية من ورائها استرضاء الممدوح، وتحريك أريحيته لنيل ما في يده من عطايا وهبات، على النحو الذي وصف به منير ناجي ابن هانئ، فقد كان الباحث قاس في حكمه على الشاعر حين رأى أن ابن هانئ لم يكن يبحث عن مثال أعلى للرجل العربي، حتى إذا وجده أعجب به وانفرد إليه يمدحه كما هو الحال في المتنبي مع سيف الدولة، بل يسعى ويريد أن يعيش همه أن ينال جزاء مدحه ويحظى بمحبوبة من العيش ويسعد بها.[27] إذا صح ما ذهب إليه الباحث قبل قليل، فلنا أن نتساءل لماذا يكلف ابن هانئ نفسه مشقة الدخول في خصومات سياسية مع أمراء الأندلس، وولاتها وكان بإمكانه بشيء من التملق – على عادة بعض الشعراء – أن يحقق مآربه؟ وكيف نفسر الحظوة التي لقيها في كنف والي إشبيلية؟

إذن فابن هانئ ظل فترة يحلم بالمثل الأعلى، الذي تصبوا إليه نفسه، ويبحث في الواقع عما يضاهي تلك الصورة التي رسمها في مخيلته للشخص الذي يجسدها. حتى إذا ظفر بها في شخص الخليفة المعز لدين الله الفاطمي زال توتره، وكف بحثه

فحصل التصالح بين الذات والواقع، أو بين المثال والشخص الذي يمثله. ولاشك أن إعجاب الشاعر بالأمراء الحمدونيين، ومدحه لهم، إنما هو في الواقع مدح لولائهم للدولة الفاطمية، وفي كونهم يمثلون البطولة العربية التي عشقها الشاعر وشكلت كم رأينا مكونا من مكونات شخصيته النفسية، والفنية. ولعل ما يبرر إعجاب ابن هانئ بالأمراء الحمدونيين، هو اشتراكهم معهم في الإنتماء العربي ولهذا أكثر ابن هانئ من الإشادة بالنسب القحطاني، فنراه يجعل من جعفر جامعا لكل الخصال اليمنية[28] يقول في ذلك[29]

فلو نسبت يمن كلما ... إليك، لقلنا: لاجرم

وسأكتفي بجملة من الأمثلة من مدائح الشاعر لآل حمدون للتمثيل لتلك الصفات التقليدية التي تمت الإشارة إليها سابقا.

في مدح ابن هانئ لجعفر بن علي كثيرا ما يردد الشاعر المعاني العربية كالبطولة والفروسية التي تغنى بها العرب قديما في الجاهلية.

ففي القصيدة الراقية الموالية يشيد ابن هانئ بشجاعة جعفر، وقوة بأسه في جو من الحماسة التي صنعتها فخامة اللفظ، ومتانة التركيب مع نفس قوي يشبه نفس المتنبي[30] يستهل الشاعر هذه القصيدة بمطلع حربي يحمل بشائر النصر، التي فاحت روائحا الشذية في الآفاق فيقول:[31]

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر ... وأمدكم فلق الصباح المسفر

بعد ذلك راح الشاعر يصور جعفر، وهو يقود الخليل المعتقة التي أبت سناكبها إلا أن تطأ خذ العدو المتكبر فترديه صغير ذليلا:

القائد الخيل العتاق شوازبا ... خزرا إلى لحظ السنان الأخزر

تنبو سناكبهن عن عفر الثرى ... فيطأن خد العزيز الأصعر

وعلى صهوات هذه الخيول فتية شجعان يتعطرون بصدأ، ويتطيبون برائحة الدم، لا يأكل الذئب جثة قتيلهم من كثرة الرماح وأنسو الوحوش في القفار كأنهم جن عبقر يسكنون قفارا موحشة. تعدوا على قطع القفار، ليلا واقتحام الغابة الكثيفة

الأشجار حتى خافتهم الأسد، يبيتون على جيادهم، وتظل تسبح في الدماء خيامهم كأنها سفن في البحر لكثرة القتلى وغرارة الدماء:[32]

في فتية صدأ الدروع عبيرهـــم ... وخلوقهم علق النجيع الأحمـر

لا يأكل السرحان شلو طعينهـــم ... مما عليه من القنا المتكسـر

أنسو بهجران الأنيس كأنهـــم ... في عبقري البيد جنة عبقـر

يغشون البيد الفقار وإنمـــــا ... تلد السبنتي في اليانب المقفر

قد جاوروا أجم الضواري حولهم ... فإذا هم زاروا بها لم تـزأر

قوم يبيتهم على الحشايا غيرهـــم ... ومبيتهم فوق الجياد الضمـر

وتظل تسبح في الدماء قبابهـــم ... فكأنهن سفائن فـي البحـر

والملاحظ لهذه المعاني التي وصف بها الشاعر ممدوحة وقومه يجد أنها تجنح إلى بالمغالاة المعنوية، ولكنها تبقى في كل الحالات مغالاة شعرية شأنها كشأن مغالاة التي يستخدمها المتنبئ في قصائدة.

أما عندما يحدث الشاعر عن معاني الكرم، والحلم، وحماية المستجير، ونصرة الملهوف والوفاء بالوعد، فكان كثيرا ما يربطها بمعاني الفروسية، ويحيطها بإيطار من الإيقاع الحربي الذي تتجلى فيه النبرة الخطابية واضحة بجلاء.

لنأخذ قصيدته في مدح جعفر بن علي بمناسبة انتصاره في إحدى الوقائع الحربية[33]. يفتح الشاعر القصيدة بلهجة خطابية مفزعة مستخدما أسلوب القسم وأدوات التنبيه والتوكيد التي توحي بقوة الحسم في الأمر. يقول فيها الشاعر:

أما والمذاكي بلكن الشكـــــم ... وضرب القوانس فوق البهم

ووقع الصعاب وحر الجـــلاد ... إذا ما الدماء خضبن اللمم

يمينا لأنت عليك الملـــــوك ... لمن جاء خص ومن شاء عم

ويصفه ابن هانئ بعد ذلك بخصال فاق فيها كل الأمم، حتى أضحى علما يهتدي به الحائر، ويستجير به العاني.

وإني لأعجب من خلتين جود يديك وبخل الأمة

فعان يرجى لديك الفكاك وعافه يشيه لديك الديه

فمن أين ساروا فأنت السبيل ومن أين حلوا فأنت العلم

وكعادة الشاعر يميل إلى المبالغة فيصف ممدوحه بما يرفعه فوق النجوم ولو قدر لجعفر أن يكون حيث نجوم السماء لعدم الناس الرزق في الأرض.

فلو كنت حيث نجوم السماء فما كان رزق في الأرض قسم

ويلجأ ابن هانئ إلى أسلوب المقارنة والموازنة ، فيشبه الممدوح بالبحر في الجود والكرم غير أن جوده عذب فرات ، بينما ماء البحر مالح أجاج .

فأشبهك البحر إن قيل: ذا عظم وهذا جواد خضم

وأخطاك الشبه إن قيل: ذا أجاج وهذا فرات شبم

إذا لم يكن منهلا للورود فلا خير في موجه الملتطم

وفي إشارة خاطفة يشيد ابن هانئ بانتساب الممدوح إلى آل البيت من بني هاشم[34]

رأيتك سيف بني هاشم وخير السيوف اليماني الخذم

ولا يسأم الشاعر من الاستغراق في المبالغات الشعرية. فيصور جود الممدوح في صورة خيالية تجعل منه معلما يعلم الرياح، والسحب سنن الكرام والعطاء. فسخاء جعفر لايدانيه سخاء في التاريخ، فما اشتهر به حاتم وهرم بن سنام (*) من كرم لا يرقى إلى كرم ممدوح، الذي يهب بالألوف فماذا قدم حاتم أو هرم بن سنام سوى بعير فريد، أو مضيفة يتيمة؟

إلى جعفر يتناهى المديح وفيه تثير القوافي الحكم

هواستن للربع هذا الصبوب ورشع – ذا العارض المرتكم

فمن حاتم ثكلوا حاتما ومن هرم حيث حيث عدوا هرم

إذا هو أعطى البعير الفريد برهيته ظن أن قد كرموا

وأنت رأيتك تعطي الألـوف ... فتنصب نصبا ، ولا تقتصـــد

وكان إذا ما قرى بكـــرة ... تفرد بالجود فيها زمـــد

وأنت تجود بمثل البحـــار ... من القبر في مثلهـــا من أحد

ويركز الشاعر على الانتماء العربي، الذي يجمعه بجعفر، لأنه يرى في الممدوح الشخصية العربية الأصيلة التي مازالت تحتفظ بمقوماتها في زمن طغى فيه العجم على الدولة الأندلسية، والدولة العباسية.

إذا عربي لم تكن في الصميم ... فمن نمتك فتلك العجـــم

ويختم الشاعر القصيدة بدعوة للممدوح يرجو العطاء لكنها دعوة رجل حر، متعفف قهرته الظروف، واضطهده العدو المشترك، فاستجار بكنف الحمدونيين فاستحق باسم الولاء لهم حق الحماية والنصرة. (35)

أبا أحمد! دعوة حـــرة ... لحر المواثيق حر الخمـــم

حمدت لقاءك حمد الربيـــع ... وشمت نوالك شيم الديـــم

أدم إليك اعتوار الخطـــوب ... وصرف الحوادث فيمـــا أدم

وممـا أعان على الزمـــان ... عفاف يدي وعلو الهمـــم

فلا بالعجول ولا بالملـــول ... ولا بالسؤول، ولا المغتنـــم

وإني ، وإن ترني قابـــضا ... جناحي إلى كظها وجـــم

أقل من صفوات المـــزار ... وأبدي الغناء وأخفي العـــدم

فإني من العرب الأكرمـــين ... وفي أول الدهر ضاع الكـــرم

والقصيدة – كما نلاحظ – تميزت بحلاة اللفظ، وخفة الوزن، وطلاقة التعبير وغنائية بارزة توحي بصدق التجربة الشعرية عند ابن هانئ.

وفي قصيدة أخرى تعد من أروع القصائد التي نظمها ابن هانئ في مدح جعفر ظمنها الشاعر مقدمة في وصف النجوم أشار إلى أهميتها الكثير من الدارسين فهي تدل بحق على عمق معرفة ابن هانئ بعلم الفلك ومواقع النجوم ومطلع القصيدة في وصف ليلة خمرية شبهها الشاعر بامرأة أرسلت شعرها الطويل على كفلها وجعل الجوزاء شنفا في أذنها.[36]

أليلتنا إذ أرسلت وارد وحفا وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا

تم وصف بعد ذلك الساقي، الذي بات يسقي الندماء خمرا تحت ضوء النجم وقد أثقلت الصهباء أجفانه، فلم يعد يقدر على حمل الكؤوس، ويظهر أن هذا الساقي من الفرس الذين مازالت في لسانهم نون الغنة [37].

وباتت لنا ساق يقوم على الدجى بشمعة نجم لا تقط ولا تطفى

أغن غضيض طرفه اللين قده وثقلت الصهباء أجفانه الوطفا

ولم يبق إرعاش المدام له يدا ولم يبق إعنات التثني له عطفا

ويمتزج وصف الخمرة بوصف النجوم، والليل امتزاجا قويا، حتى خيل للشاعر أن الليل في هزيعه الأخير سكران مطروحا على الأرض، وشبه الفجر الذي يلاحقه كأنه جيش الأتراك لبياضته " والليل نجاشي لسواده وفيه إشارة، سبق أن ألمحنا غليها قبل قليل – إلى قوة الأتراك وتسلطهم ببغداد في هذا الزمان".[38]

كأن ظلام الليل إذا مال ميلة صريع مدام، بات يشربها صرفا

كأن عمود الفجر حاقان عسكر من الترك ناد بالنجاشي فاستخفى

ويخلص بعد هذه المقدمة الطويلة إلى وصف النجوم التي بلغت أبياتها سبعة وعشرين بيتا، إلى المديح فينعت جعفر بالعديد من النعوت الحسية كغرة الوجه، والنعوت المعنوية كالجمع بين الرفق والبأس، والعقل والسداد، والبر، والوفاء، وفصاحة اللسان، وبلاغة القول، والملاحظ أن ابن هانئ عندما يصف ممدوحه بصفة من الصفات لا يقف بالصفة عند حدود المنطق بل يبلغ بها أقصى الغلو حتى يخيل للقارئ أن مدحه موجه للصفة في ذاتها لا للممدوح.[39]

كأن لواء الشمس غـــرة جعفـر ... رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

وقد جاشت الدأماء بيضا صوارما ... وما رنة سمرا، وفضفاضة زغفا

فمالك تلقى جعفرا غير جعفـــر ... وقد بدلت يمناه مـن رفقها عنفا

وكائن تراه في الكريهة جاعـلا ... عزيمته برقا، وصولته خطفا

وتاتي عطياه عـــداد جنوده ... فما افترقت صنفا،ولا اجتمعت صنفا

ويعيا بما يأتي خطيب وشاعر ... وإن جاوز الإطناب واستغرق الوصفا

جزيل الندى والبأس تصدر كفه ... وقد نازلت ألفا وقد وصبت ألفا

يد تستهل فيها الجود مع الندى ... ويعبق منها الموت يوم الوغى، عرفا

لم يقتصر ابن هانئ على مدح جعفر ككبير أسرة آل حمدون، بل مدح ابنه ابراهيم واتصل بأخيه يحي بن علي. وفي مدحه ليحي بن علي الحمدوني تبدأ أصداء التعاليم الاسماعيلية في الظهور لكنه ظهور على استحياء، ويتجلى ذلك في معرض الإشادة بولاء الممدوح للفاطميين.[41]

لكل قـــوم سيـد ماجـــد ... لكن يحي سيد الخلـــــق

يصرح المجد إذا ما بـــدا ... ويسجد الباطل للحـــــق

فإن يكن سيف إمام الهـــدى ... فهو إمام العتق والرتـــق

كأنما في كفه للـــــورى ... مفاتح الآجـــال، والـــرزق

الحوض حوض الله في كفـه ... يطفح من مـــلء ومن فهـــق

ذو الطعنة الصدقاء والضربة ... الصبرة ذات اللجـج العمـق

يلج في البأس وأعـــــداؤه ... في الذعر والرياث في الخفق

مجتمع الخلق إذا مـا مضـــى ... كأنـــه صاعقـة المعـق

فالشاعر يجمع الرأي بين المعاني التقليدية، والمعاني المذهبية في مدحه ليحي، فالممدوح إلى جانب كونه سيد الخلق، وناصر الحق، وصاحب البأس القوي، وجامع الرأي السديد فهو يملك ما لا يقدر عليه أحد من البشر، الآجال والأرزاق غير

أن الشاعر وجد حرجا في نفسه لما وصف ممدوحه بالمعنى السابق فخفف حدة هذا الغلو الديني باستخدام أداة التشبيه "كأنما"بينما عندما تتمكن العقيدة الباطنية بنفسه، يطلق هذه المعاني المذهبية في مدح المعز دونما حرج أو قلق. ويختم ابن هانئ القصيدة بإعلان عجزه عن عدم إيفاء بعض ما أولاه الممدوح من عطف وكرم، ويبالغ في وصف شدة امتنانه على النعماء التي ردها عليه يحي بن علي فيقول:[41]

حقنت في صفحة وجه حمـيي ... من بعد ما أوفى على العـــرق

وما وفى شكري ببعض الـذي ... كسيتني من مفخري الصـــدق

هل غير شكر نعمة أتعبـــت ... صمتي ، وأخرى اتعبت نطـقي

وفي القصيدة الموالية يمدح الشاعر يحي بن علي أيضا، ويهنئه بسلامة القصد، فيردد المعاني التقليدية المطروحة، ويشير في نفس الوقت على ما قد يفهم منه من المعاني الشيعية. فالممدوح محارب شجاع إذا اقتحم ساحة الحرب، ألقت إليه مقاليدها، وإذا أشار إلى الخلافة أتته منقادة، وإذا تصفح الأمور وفق في تسديدها، ويغالي الشاعر في تصوير المعاني كعادته، فيجعل أرواح الأعداء في قبضة الممدوح يتصرف فيها كيف ما شاء.[42]

وإذا نظرت على الأسنة نظـــرة ... ألقت إليك الحـرب بالإقليـــد

وإذا ثنيت إلى الخلافة إصبـــعا ... وفيت حق النفـض والتوكيـد

وإذا تصفحت الأمور تدبـــــرا ... حيرت في التوفيق والتسديـد

وإذا تشاء بلغت بالتقريب مـــا ... لا يبلـغ الحكمـاء بالتبعيـــد

وقبضت أرواح العدى وبسطتـــها ... ما بين تليين إلى تشديـــد

وفي الأبيات الآتية يلمح القارئ بعض أصداء التعاليم الإسماعيلية حينما يصور الشاعر صفات الممدوح، فيجعل بعض الصفات الظاهرة بإمكان العامة من الناس معرفتها، وبعض الصفات الباطنية لا يقدرون على إدراك ماهيتها. فيقول. [43]

ولقد بعدت عن الصفات وكنهها ... ولقد قربت فكنت غير بعيد

فكأنك المقدار يعرفه الـــورى ... من غير تكييف ولا تحديـد

كل الرجاء ضلالة ما لم يكـــن في الله أو في رأيك المحمود

ويبدو أن الشاعر في تلميحه للآراء الإسماعيلية يكون قد اتصل بالمعز، أو كانت له معه اتصالات أولية، ويتضح ذلك أكثر لما يقرن ابن هانئ بين مدح يحي والمعز، بل لا يمدح يحي، إلا لأن ولاءه للخليفة الفاطمي وثيق، يقول الشاعر في ذلك:[44]

ورأى الخليفة منك بأس ممهد بيده من روع الشعاع سبيلك

ويقول في موضوع آخر مبينا تبعية يحيى للخلافة الفاطمية من خلال دفاعه عنها وعن حقوقها:[45]

وإنك عن حق الخلافة ذائد وأنك من ثغر الخلافة باسم

فإذا كان يحيى بن علي لا يتحرك، إلا في طاعة الخليفة المعز، ولا يسعى إلا في نصرة الدولة الشيعية، فإن سيفه المسلط على الأعداء هو الآخر مخلص في ولائه للفاطميين متشيع للمعز.[46]

في كفه يحيى منه أبيض مرهف عرف المعز حقيقة متشيعـا

وجرى الفرند بصفحتيه كأنمـــا ذكر القتيل بكر بلاء فدمعـا

يكفيك مما شئت في الهيجـاء أن تلقى العدى متسل منه إصبعا

وما يؤكد تبعية يحيى للخليفة "المعز" ويبين لنا أن الشاعر قد زاد تعلقه بالمبادئ الشيعية هو ما وصف به سيف يحيى من أنه عبد ومولى للخليفة شيعي المذهب كحامله مسخر في خدمة الخلافة الفاطمية في إخلاص وتفان يقول ابن هانئ في وصف سيف ليحيى بن علي[47].

أكوكب في يمين يحيى أم صارم باتك الغـرار

حامله للمعز عبـــد والسيف عبد لـذي الفقار •

ويقول في نفس المعنى أيضا: [48]

وابيض من نير طبع الهند يجول بين حده والعـــــد

أشبه بالماء من الفرنـــد اقدم من راء ويزد جـــرد*

تراث يحيى عن أب وجـد من بعد ما قطع الفك نهـــد

جرده بين يدي معـــــد* قد ينصر المولى بسيف العبد

أما القصيدة * التي مدح بها ابن هانئ الأخوين معا يحيى وجعفر، فلا يخرج مضمونها عن تكرار نفس الصفات، أو المعاني التقليدية المعروفة، فليس فيها ما هو جديد يستدعي الدراسة. يبقى الرجل الثالث من أسرة آل حمدون الذي حظي بمدح ابن هانئ وهو إبراهيم، بن جعفر بن علي، الذي مدحه بأربع قصائد. وفي قصيدة للشاعر في إبراهيم يشير إلى المعارك التي خاضها ضد الخوارج، ويشيد ببطولاته المحققة في المغرب الأقصى، وينوه بصيته الذائع في بلاد الزاب الجزائري في معرض التغني بفضائله ومدحه صفاته. [49]

وأعيا الحروريين * عقد النصـى مظاهر عقد الحزم بالحزم موثقه

يرون بإبراهيم سـهما يريشـــه لهم بالمنايا جعفر ويفوقـــــه

يطيب نسيم الزاب من طيب ذكره كما فتق المسك الذكي معتقـه

ويعبق ذاك الطرب من أوجه الحجى كما فاح من نشر الأحبة أعبقـه

وبالمغرب الأقصى قريع كتائـــب تخب بمسراه . فيرجف مشرقـه

ومن قصيدة ابن هانئ الهائية في مدح إبراهيم بن جعفر، يمكن أن نستشف من إشارة عابرة إلى معنى من معاني العقيدة الإسماعيلية في الإمام الذي يعلم الغيب في زعم الشيعة، وماعدا ذلك فالقصيدة قد جمعت بحق كل الفضائل المعنوية، والحسية التي ينبغي أن يتحلى بها الممدوح ليقترب من المثال الأعلى الذي يطمح الشاعر أن يظفر به. [50]

مقـــل، والبـــدر فوق جبينـــه يلقاك بشر سماحه من دونـــه

والدين والدنيا جميعا والنـــدى ... والبأس طوع شماله ويمينـــه

جذلان فالآداب في حركاتـــه ... والحلم في إطراقه وسكونـــه

باديّ الرضا وحذار منه معاودا ... غضبا يريك الموت بين جفونه

وحـــصمه لو ينتحي بلوانـــه ... ريب المنون لكان ريب منونـــه

لين تماس به الخطوب وشـدة ... والنصـــل شدة باسه في لينـــه

ومقارب فيما يروم مباعـــد ... أعيا لبيب القوم جم فنونـــه

يجلوه الغيب المستر ماجـس ... ثقفه النباهة ظنه كيقينـــه

وكثيرا ما يمتزج الوصف بالمدح في قصائد ابن هانئ، ومن ذلك قصيدته في مدح جعفر التي مدحه بها بمناسبة إتمامه بناء المجلس الذي يشبه الإيوان عند الفرس، وقد فاق هذا الإيوان في حسنه وهندسة أشكاله إيوان كسرى ويعد من مظاهر الأبهة والثراء[51] وتطور العمران وازدهار الحضارة في عهد الفاطميين. وفي وصف ابن هانئ للمجلس تظهر محاكاته الصريحة للشاعر البحتري في وصفه لإيوان آل ساسان خاصة في رقة الألفاظ وعذوبة الموسيقى. يصف ابن هانئ المجلس بأبيات رائعة استهلها بتصوير غيرة الشمس من حسن ذلك المجلس وذكر تضاؤل لمعانها مع لمعانه إذ كان مكسوا بالذهب والفضة فيقول.[52]

الشمس عنه كليلة أجفانـــها ... عبرى يضيق بسرها كتمانـــها

لو تستطيع ضياءه لدنت لـــه ... يعشو إلى لمعانه لمعانـــها

إيوان ملك لو رأته فـــارس ... ذعرت وخر لسمكه إيوانـــها

أو ماترى الدنيا وجامع حسنها ... صغر لديه وهي يعظم شانـــها

تغدو القصور البيض في جنباته ... صورا إليه يكل عنه عيانـــها

والقبة البيضاء طائرة بـــه ... تصوي بمنخرق الصبى أعنانـــها

بطلانها وشي البرود وعصبها ... فكأنمـــا قوميـــها ظعرانـــها

نبطت أكاليل بها منظومـــــة فغدى يضاحك درهـا مرجانهـا

فأدر جفونك واكتحل بمناظـــر تنشي فرند لجينها عـقيانهـــا

لترى فنون السحر أمثلة وهـــا يدري الجهول لعلها أعيانهـــا

ويسهب الشاعر في وصف المجلس حتى يخلص إلى المديح، فينعت ممدوحه بأنبل السجايا التي اشتهرت بها العرب الأصلاء، كالكرم والسماحة والعفو عند المقدرة.

ألف الندى حتى عليه كأنشـه رتك المطي إليه أو وخدانـها

تغار هوبقة الجرانع حافـع وسجية من ماجد تغزانهـا

شيم إذا حن تبرعـــــت كرما فأسبع عطفها وحنانـها

وخلاصة القول أن القصائد الحمدونية التي نظمها ابن هانئ خلال المرحلة المغربية قد دارت أغلب مضامينها حول المعاني التقليدية التي شاعت في قصائد المدح عند الشعراء القدامى، وما اتسمت به هذه المعاني عند ابن هانئ من مبالغات يرجع في الأصل إلى تعلق الشاعر بالشخصية العربية التي تجسد هذه المعاني في أكمل صورتها.

أما المعاني الشيعية فلم تظهر إلا خافتة أحيانا، مما يوحي أن ابن هانئ مازال بعد لم يتعمق في فهم أسرار المذهب الباطني، ومازالت نفسه لم تتشبع بتعاليمه. يمكن أن نعد هذه المرحلة من حياة الشاعر مرحلة بحث عن مثل أعلى طالما حلم به ابن هانئ، وسعى في البحث عنه في مدحه للأمراء الحمدونيين، غير أنه لم يعثر على هذا المثال الذي ينشده إلا في شخص المعز لدين الله الفاطمي، على النحو الذي يكشفه البحث في المرحلة الموالية من حياة الشاعر ابن هانئ الأندلسي.

الهوامش

1 - ابن بسام.(أبوالحن علي).
2 - ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد أبي بكر). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ط . حققه إحسان عباس. لبنان- بيروت - دار الثقافة. ج 04 ص 421
3 - ابن الأبار. (أبو عبد الله محمد). التكملة لكتاب الصلة. ط . علي بنشرد، وصححه، ووقف على طبعه عزة العطار الحسيني ج 01. ص 368.
4 - ابن سعيد المغربي (علي بن موسى بن سعيد) المغرب في حلى المغرب ط 02 (ملقحة). حققه وعلق عليه شوقي ضيف، مصر: دار المعارف ج02 ص 107.
5 - الحموي، ياقوت، شهاب الدين عبد الله الرومي البغدادي. إرشاد الأريب (معجم الأدباء). ط. تحقيق إحسان عباس. دار العرب الإسلامي ج06 ص 2667 .
6 - ابن الخطيب، لسان الدين. الإحاطة في أخبار غرناطة. حققه وقدمه عبد الله عنان. مصر: دار المعارف ج02 ص 112.
7 - المقري. أحمد بن محمد نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. حققه إحسان عباس. دار صادر بيروت المجلد رقم 4 ص 40.
8 - اليعلاوي محمد بن هانئ المغربي الأندلسي ص 107 وأبو القاسم محمد كرو، ابن هانئ متنبي الغرب ص 08.
9 - خالد أحمد بن هانئ الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ص.09، 10.
* هذه أهم المصادر التي تناولت حياة ابن هانئ، وثمة مصادر أخرى لم نذكرها لأنها لا تختلف كثيرا عنها.
10 - ديوان ابن هانئ كرم البستاني. دار بيروت للطباعة والنشر ص 227.
11- ناجي منير. ابن هانئ الأندلسي. درس ونقد. دار النشر للجامعيين ص 40.
12- أحمد خالد. ابن هانئ. ص 10 .
13- اليعلاوي محمد. ابن هانئ المغربي الأندلسي. شاعر الدولة الفاطمية. دار الغرب الإسلامي. 1985 م. ص. ص 111، 112.
14- ناجي منير. ابن هانئ درس ونقد، دار النشر للجامعيين ص 55.
15- ديوان ابن هانئ. نشر- كرم البستاني- دار بيروت للطباعة والنشر.ص 238.
16- أورد هذه الأبيات. ابن سعيد المغربي. علي بن موسى بن سعيد. المغرب في حلى المغرب ط2 حققه وعلق عليه شوقي ضيف. مصر. دار المعارف ج2 ص 98.

يا عاذلي لا تلـــــحني أنني ... لم تصبني هند ولا زينب
لكني أصـــــبوا إلى شادن ... فيه خصال جمة ترغب
لا يرهب الطمت ولا يشتكي ... حملان ولا عن ناظر يحجب.

17- ابن خلكان. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان. وفيات الأعيان وأبناء أبناء زمان. حققه إحسان عباس. بيروت. لبنان. دار الثقافة ج4 ص 668.
18- المقري.(أحمد بن محمد التلمساني). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. حققه إحسان عباس. بيروت. دار صادر.مج4.ص.ص40، 41.

19- الحموي ياقوت.(شهاب الدين عبد الله الرومي البغدادي). معجم الأدباء.ط.تحقيق إحسان عباس.دار الغرب الأسلامي ج6.ص2667.
20- خالد، أحمد.ص.ص10،11.
21 - خالد احمد. نفسه ص 11
22 - الديوان ص 245
23 - حسن إبراهيم حسن. تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد المغرب ص، ص 440، 441 .
• نسبة إلى ال حمدون بن علي الذين اتصل بهم الشاعر ببلاد المغرب. الأوسط(الزاب الجزائري) .
24- خالد أحمد المرجع السابق ص 23
25- ابن خلدون. عبد الرحمن بن خلدون المغربي. تاريخ العلامة بن خلدون. بيروت. لبنان. دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة. الم 04 القسم الأول ص 176.
* - لا تهم فترة إقامة الشاعر بالزاب الجزائري حتى وإن اختلف في مدتها. بقدر ما يهمنا الإنتاج الشعري الذي نظم خلالها.
26- كرو أبو القاسم محمد بن هانئ متنبي المغرب. ط1 تونس: دار المغرب العربي ص 24
27 - ناجي منير. ابن هانئ ص 128.
28- اليعلاوي محمد بن هانئ الأندلسي المغربي دار الغرب الإسلامي بيروت لبنانص84.
29- الديوان ص 332.
30- ناجي منير - المرجع السابق ص 134.
31- ديوان ابن هانئ الأندلسي- شرح أنطوان نعيم ط1. بيروت. دار الجيل.1996م ص 257.
32- الديوان. المصدر السابق. ص ص 258. 259 .
33- الديوان. ابن هانئ.نشر كرم البستاني.ص 228 وشرح الديواني أنطوان نعيم. ص 311 .
34- الديوان. ابن هانئ. ص ص 311، 312
* -المقصود بذلك حاتم الطائي وهرم بن سنان ممدوح زهير بن أبي سلمى(ديوان ابن هانئ شرح أنطوان نعيم، ص 314) .
35- الديوان. ص. 316.
36- الديوان. شرح أنطوان نعيم ص ص 270، 271.
37- الديوان. ص 270.
38- الديوان. شرح أنطوان نعيم ص 273 .
39- الديوان ص ص 273، 274.
40- الديوان. ص 291.
41- الديوان. ص 292.
42- الديوان ص 347.
43- الديوان. ص 348.
44- الديوان. ص 297.
45- الديوان. ص 323.
46- الديوان. ص 398.

47- الديوان. ص 400.
* - ذو الفقار. لقب سيف الإمام علي رضي الله عنه.
48- الديوان. ص 399.
* - يزدجرد: من ملوك الفرس * رام: غير معروفة.
* - معهد: اسم الخليفة المعز لدين الله.
* - القصيدة الرائية ص 248 من ديوان ابن هانئ شرح أنطوان نعيم.
49- الديوان. ص. ص 282، 283.
* - الحروريون. هم الخوارج نسبة إلى حروراء وهي قرية بالكوفة.
50- الديوان. ص. ص 326، 327.
* الديوان مقدمته. ص 329 شرح أنطوان نعيم.
51- خالد، أحمد. ابن هانئ. ص 41.
52- الديوان ص ، ص 329، 338.